العرب في عين العاصفة

الأفراد. وبما تعنيه من انتفاء قيم التكافل والمساواة والتضامن. وأفهم أن الإسلاميين يشدّدون على التنديد بالأوضاع السياسية والاقتصادية. كما أن تركيز حملاتهم الانتخابية عليها كان من عوامل حصولهم على أصوات هذه الفئة الواسعة، التي ظلت محرومة ومقهورة في ظل حكومات احتقرت جرأة المواطنين على الغضب، على قول لا، بإيمان وتضحية. مع ذلك، فإن الثقافة الحديثة هي ما يؤدي إلى وَعْي الفرد بالذات وبالعالم، وهي التي تبني لحمة العالم العربي الحديث. من ثم فإن ما يهدد مصيرها لا يهدد وجود الحداثة بمفردها، بل يهدد مصير الوعي بالذات من جهة، وبالآفاق المستقبلية للعالم العربي، بعمقه التاريخي وتنوعه الاجتماعي واللغوي والثقافي، من جهة ثانية.

.5

مشكل الإسلاميين الأساسي هي أنهم ينطقون باسم إسلام لا تاريخي، ويتنافى مع الإسلام الحضاري، في كل منطقة على حدة. لذلك فهو جواب إيديولوجي، في فترة أزمة القوى التقدمية واليسارية، سواء في علاقتها مع المجتمع أو مع الغرب. وهو يلتقي في الوقت نفسه . منذ الثمانينيات . مع ما عرف عبر العالم باسم «عودة الدين». الإسلام السياسي تأويل حرفي، ينطلق من أسبقية المعنى الواحد على المعنى المتعدد. لهذا، كان ملجأ فئة لا تلتفت إلى تاريخ المجتمعات العربية، في ضوء ثقافتها وحضارتها، وفي ضوء تفاعلها مع ثقافة العالم في العصر الحديث. وهي النقطة المحورية لحركة التحديث عبر العالم العربي. من ثم، فإن الإسلاميين جاءوا من خارج سياق تاريخي وحضاري في آن معاً.

بدأ التعارض بين حركة التحديث وبين الإسلاميين، منذ سقوط الخلافة العثمانية وظهور حركة الإخوان المسلمين في مصر. ولا تزال هذه الحركة تختلف عن الحركات الإسلامية في المغرب العربي، التي باتت تميل إلى النموذج التركي. وإذا كان الإسلاميون قد اقتربوا قليلاً أو كثيراً من الوهابية، فإن الربيع العربي علّمهم كيف يراعون الأوضاع المحلية وعدم الانسياق وراء الإغراءات الإيديولوجية. إن أهم خصائص الربيع العربي هي تمكنه من التعبير عن الواقع السياسي والمجتمعي انطلاقاً من المحلي، لا من المشترك العربي، كما عودتنا الحركات القومية السابقة. فالتحول إلى ما هو محلي، من أهم عناصر التفاف فئات واسعة من الشعب حول الشبان وثورتهم.

من هنا فإن انتصار الإسلاميين أبان عن الاختلاف بينهم بقدر ما أبان عن تضامنهم بعضهم مع بعض. وهو

> خطابهم الدعوي موجود. وهو قائم على بتر تاريخ الثقافة العربية وحضارتها

اختلاف سينسحب على موقفهم مستقبلاً من الثقافة الحديثة، حسب الأوضاع المحلية التي سيكون عدم اعتبارها من قبيل تكريس ثقافة شعبوية، ذات بعد واحد هو الجهل. إلا أنه من الصعب تكهن ما ستصبح عليه درجة موقفهم من حرية التعبير وهُمْ في الحكم. ما سمعناه من تصريحات، على لسان زعيم حركة «النهضة» في تونس أو «حزب العدالة والتنمية» في المغرب يجهر بما لم يخطر على بال الإسلاميين من قبل. أو هو يشطب، نهائياً اختيارهم العقائدي. أقوال تفصل بين الشأن الديني، كشأن شخصي، وبين الشأن السياسي والاجتماعي والاقتصادي. تصريحات تسير على خطى موقف العلمانيين. إنها تؤكد أن لا دخل للحكومة في الاعتقاد الديني، ما دام لا يمس علنياً بالأخلاق العامة. وهي، بطبيعة الحال، تضع حداً بينها وبين الجماعات الإسلامية، السلفية والجهادية. إسلام معتدل، كما تسميه الأدبيات الإعلامية والديبلوماسية، في العالم العربي أو في الغرب الذي يرعى مصالحه بعين لا تنام. فهل هي أقوال من قبيل الحربائية في العمل السياسي؟

.6

مع ذلك، فإن الانتصار الديموقراطي للإسلاميين يعني إلغاء فكرة العروبة كفكرة ثقافية، لا كإيديولوجيا قومية، لأن نهايتها كإيديولوجيا سبق أن تحققت، منذ السبعينيات. وآخر صيغها المتمثلة في حزب البعث السوري، تتعرض اليوم للانهيار. ويعني الانتصار، أيضاً، فشل فكرة التحديث الثقافي والفني. هذا الجانب لا يهم الغربيين بقدر ما يهم العرب أنفسهم. الإسلام المعتدل، بالنسبة إلى الغرب، يعني صيانة حقوق المرأة وحرية التعبير عن المواقف الأخلاقية (كالمثلية الجنسية). أما بالنسبة إلى العرب، فإن الاعتدال جزئي، وقد يكون ظرفياً. إن انتصار الإسلاميين يفيد أننا باختصار، ننتقل إلى عهد يقف فيه الإسلاميون وجهاً لوجه مع الثقافة العربية الحديثة. وجهاً لوجه في التعليم والإعلام والثقافة. ومهما كان انفتاح الإسلاميين، ومهما بلغ تسامحهم، فإن هذا الانفتاح والتسامح لن يبطلا مجافاتهم للثقافة الحديثة. خطابهم الدعوي موجود. وهو قائم على بتر تاريخ الثقافة العربية وحضارتها، ومن غير المحتمل أن يتبدل في شموليته. بمعنى أن تصريحاتهم المتعلقة بفصل الديني عن السياسي والاقتصادي والاجتماعي لا تسندها ثقافة ولا ممارسة. فما الذي يساعدنا على أن نفهم قول زعيم «حزب العدالة والتنمية» في المغرب، عندما يضيف بأنه سيحمي علاقات المغرب مع أوروبا، لا لأنها اقتصادية فقط، بل لأنها أيضاً فلسفية؟

حقاً، لا أحد من بين المثقفين العرب النقديين كان يتوهم، قبل هذا الذي يحدث، أن الثقافة العربية الحديثة تعيش حياة عادية في مجتمعاتنا. من هنا، لا مفاجأة. السابقون في الحكم كانوا بدورهم مناوئين للثقافة الحديثة. كانوا يريدون إخضاع المثقفين. تحويلهم إلى شحاذين يمجدون الحاكم والزعيم. ولهم بعد ذلك أن يكتبوا من المواضيع الإنشائية ما يشاؤون. وفي مناوأتهم كانوا يتركون هامشاً ما.

.7

ويشكل المغرب نموذجاً تحديثياً بحد ذاته. عهد محمد السادس يتميز بسلسلة من الإصلاحات الجريئة. ومبادرته بصياغة دستور جديد استجابت لصوت ثورة الشبان ولقسم كبير من مطالب «حركة 20 فبراير»، من دون إراقة دماء. إضافة إلى أن المعارضة التقليدية التي دشنت مرحلة التناوب السياسي، هي التي كانت تملك الثقافة لوقت طويل. ولكنها، بخلاف المؤسسة الملكية، لا تتنازل عن سيطرتها على مؤسسات ثقافية. هي سعيدة بسيطرة تضاعف من بؤس ثقافة وعبودية مثقفين. لا تتعظ ولا تريد. هناك وهنا، ظلت الثقافة الحديثة محصورة في فئة يضيق عددها، يوماً بعد يوم. منفية في البرامج التعليمية وفي الحياة العامة. وها هي العولمة تبسط سلطتها. حتى شبان الثورة لا يكادون يعرفون ثقافة الكتاب ولا الثقافة الفنية.

نموذج المغرب صيغة من صيغ الاختلاف الذي لا سبيل للإسلاميين المغاربة لتجاهله، وهم يتسلمون الحكومة. يعني أن علينا ألا نعمم التحليل ولا الاستنتاج. فالإسلاميون المغاربة لا يملكون ثقافة من إنتاجهم يواجهون بها الثقافة المغربية الحديثة. كما أنّ الحركة الثقافية لا يمكن أن تكون محايدة تجاه أي موقف ينال من حرية التعبير. رد الفعل سيكون قوياً، رغم أن هناك من سيفضل التصالح والمهادنة. إلا أن رد الفعل لا يكفي. فما نحتاج إليه هو الفعل. وهنا تطرح الأسئلة الصعبة التي هي من صلب أسئلة عوائق التحديث في المغرب، أو عبر العالم العربي.

.8

وما يبقى واضحاً، برأيي، هو مقاومة نخبة من المثقفين الأفراد، في المغرب أو في عموم البلاد التي تسيرها حكومات إسلامية. لا أنتظر أكثر من مقاومة هذه النخبة، المحدودة العدد، بالأعمال والمواقف النقدية. فهي ستستمرّ في اختياراتها التي كانت لها من قبل، حيث لا تأجيل للحوار مع الذات ومع الآخر. وأعتقد أن مؤسسات ثقافية حرة، للنشر والإنتاج ستظل هي الأخرى متشبثة بمساندة هذه النخبة المثقفة المقاومة. مصاعب التحديث الثقافي ستزداد. ولا شيء يضمن أن تكون مقاومة نخبة محدودة العدد كافية لمواجهة توسيع الفجوة بين الثقافة العربية الحديثة والمجتمع، أو بينها وبين جيل المستقبل. مقاومة فردية. نعم، لكنها تحتمي بصوت الشبان وهم يستأنفون النشيد.

* كاتب وشاعر مغربي

من تظاهرات «حركة 20 فبراير»

لشرعية سياسية وهي التي تقف على أرضية شرعية مجتمعية وتاريخية صلبة، ولتنتقل اليوم في خضم التغير المشهود للعالم العربي إلى سدة الحكم مباشرة، لكن بتفاوت كبير مع ما يحدث في تونس وليبيا وربما غداً في مصر. يرجع السبب إلى أن المغرب لا يعيش تقاطباً ثنائياً محسوماً بين يمين ويسار، وإلى صدارة الحكم وبقائه برضا عام ماسكا للزمام وحَكَما بين الجميع في آن، وقد أشرف بدهائه وحنكة خبرائه على وضع دستور جديد . قديم حريص على تحصين قوته، فيما لا يمانع في التحلي ببعض صفات التنازل والتدرج نحو ملكية برلمانية منشودة، وكله في ما يصفق له حزب العدالة والتنمية ذو الأغلبية ويسميه سياق «الإصلاح في إطار الاستقرار» الذي يطبع النموذج المغربي للربيع العربي.

لم يظهر المثقفون والمبدعون في المغرب، لحد الآن، باستثناءات معزولة وضحلة، أي رد فعل مناوئ يذكر على الموقع الجديد للإسلامويين، لا بالاستنكار ولا التحبيذ، وإن وُجد من يتجاوب مع هذا الوضع، بسبب الخيبة من حكومات سابقة عمل فيها «التقدميون»، ولأن شعار الإصلاح وتخليق الحياة السياسية ومحاربة الفساد يغري كثيرين. ثم إن الوقت مبكر لأي موقف مضاد رغم أن «جيوب المقاومة» الاقتصادية والحزبية المناوئة التي خسرت الانتخابات، وأدانها الناخبون، بدأت تشهر سيوفها للعلن. يبدو المثقفون المغاربة الرصينون والمستنيرون الآن عموما في حالة تأمل، وهم من الحكمة بحيث لا يستطيعون معاداة قرار صناديق الاقتراع، وبالتالي مناصرة الديموقراطية من جانب واحد، إذا كانوا حقا ديموقراطيين. وفي الآن، فإنهم بدؤوا ينبعثون لإطلاق مشاريع فكرية ونهضوية وسياسية، أيضا، متجددة وهم يشعرون أنهم خسروا رهاناً، ولم يرتبطوا بالقدر الكافي بالقواعد الشعبية التي عرف الإسلاميون كيف يربونها على طريقتهم ويبيّئونها وفق مشروعهم، وقد أفلحوا، لكن إلى متى؟

إنما ينبغي التأكيد أن هناك يقظة لدى الجميع، فالمجتمع المدني في المغرب، بأطيافه وتمثيلاته المختلفة، والمثقفون والمبدعون المستنيرون في ريادته حيٌّ وحريص على مكتسبات الحداثة والحريات الفردية والمضي قدماً بالثقافة الديموقراطية وتحقيق مثلها الحقيقية لا الشكلية. ولا نظن أن الحركة الإسلاموية، حتى وميزان القوى الانتخابي لصالحها، قادرة على زعزعة توازنات قائمة وخلق أي مناخ تخويف تجاهها، تدرك أن معركتها في الواجهة الاقتصادية بالدرجة الأولى، أما الفنانة لطيفة أحرار فلها أن تعري ساقيها حيثما يطيب وكما يحلو لها، فها هو وزير الاتصال الإسلامي يدشن مهرجان طنجة السينمائي بأبتسامة منشرحة، وها هم وزراء العدل والتنمية في حكومة عبدالإله بنكيران يفصلون بدلات «على قد المقام»، بل يتخلون عن عبوسهم وهم يشذبون لحاهم بالتدريج عند حلاق جديد.

* كاتب مغربي